معانٍ مَخفيّة

اسم الكتاب: **معان مَخفيّة**

اسم المؤلف: **فاطمة حمدي**

تدقيق لغوى: **هدية علي**

تصميم الغلاف: **محمد دربالة**

تنسيق داخلي: **مينا تادرس**

رقم الإيداع: **٢٠٢١/٢٢٩٥**

الترقيم الدولي: **٩٧٨٩٧٧٨٤٤١٠٧٦**

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

أى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمسائلة القانونية والآراء والمادة الواردة.
وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

E-mail: ebharpuplishing@gmail.com

تليفون: ٠١٠٦٠٢٦٧٤٠١

فاطمة حمدي

معانٍ مَخفيّة

إبهار
للنشر و التوزيع

مُقدِمة:

أكثر من نِصف ما جاء في هذه الصفحات كُتِبَ بالدموع لا بالحبر..
وكل ما جاء كُتِبَ عن تجارب شخصية عايشتها بنفسي، أو رأيتها بعينيِ..
وفي النهاية فهو مجرد رأي، كونته من وجهة نظري وفهمي وإدراكي، فقد يكونُ صحيحًا أحيانًا، وقد يكونُ خاطئًا أحيانًا أخرى..

معانٍ مَخفيّة

لكل كلمة معنى، وهناك الكثير من الكلمات لها أكثر معنى، بعضها معروف للجميع، وبعضها الآخر قد يكون مخفيًا، مخفيًا بداخل كل منا على حسب شعوره. لا يدركها إلا من ذاقها وعلم شعورها الحقيقي، لا يستطيع أحد منا شرحها للغير؛ لأنها أكبر من أن تُترجم لكلمات، فقط نشعر بها..

أيضًا هناك معانٍ تختلط علينا فلا نعرف حقيقة المعنى حتى ونحن نعيشه، نفهمه فهمًا خاطئًا، تتداخل معه معانٍ أخرى فلا نعرف التفرقة بين هذا وذاك، ونظل على وهمنا بالفهم ونحن في حقيقة الأمر لا نفهم شيئًا..

هنا بعض المعاني التي حاولت شرحها من وجهة نظري، وعلى حسب فهمي لها كما عايشتها وشعرت بها، وكما علَّمتني الحياة إياها..

ربما يجد من يقرأ كلماتي تعبيرًا لم يكن يعرف كيف يصيغه، وربما يقابلُ شعورًا بداخله ودّ لو أنه استطاع وصفه..

وربما تُفيدُ كلماتي شخصًا واحدًا في إعطائه أملًا كان يحتاجه، أو تَعلُّم درسًا ما يُستفاد منه في حياته الآتية..

قهوة وياسون

جرب أن تخبر أحدًا ممن يحبون القهوة بأنها مشروب عادي كأي مشروب آخر، ستجد الرد المبرمج عليه الجميع: "أنت لا تعرف كيفية التذوق، أنت لست عميقًا كفاية لتحب هذا المشروب الساحر، وتعشق مذاقه كما يجب." هكذا يصبح الخطأ فيك أنت يا عديم التذوق، يا سطحي التفكير، فمَن أنت من الأساس لتساوي بين القهوة واليانسون مثلًا؟!

هكذا هي علاقتنا بكل شيء حولنا.. هناك من يحصرون الأفكار في بعض الصفات الخارجية، كالعمق والثقافة الذي أصبحنا نستدل عليهما من حب القهوة، والمزيكا الهادئة مع جلسة على البحر، وقراءة كتاب ل "فيكتور هوجو" أو "باولو كويلو" وإن كنت لا تحب القهوة فأنت بالطبع جاهل، ولا تفقه شيئًا في الذوق العام..

وهكذا أيضًا أصبحت الملابس هي التي يُعرف منها من معاصر للموضة ومن ما زال رجعيًا يلبس من الستينات! فضلًا عن أنواع الموسيقى، فلا بد لك أن تكون مُلمًّا بكل أسماء مغنيين الراب في العالم كله، بالإضافة إلى أسماء مغنيين المهرجانات، وكلمات أغانيهم التي لا تستطيع حتى

فهمها وليس حفظها، وإن لم تفعل، إذن، فعليك أن تخجل من نفسك يا رجل، ألا تعيش معنا على سطح الكوكب؟!

أخبروني، من قال أن الثقافة تتمحور في فنجان قهوة، وكتاب؟ ألا أستطيع أن أقرأ الكتاب وأنا مستلقٍ على سريري أُمسك الكتاب بيد، بينما أداعب أصابع قدمي باليد الأخرى؟!

ألا أستطيع أن أقرأه وأنا أقضم شطيرة محشية بشرائح اللحم الطازج مضاف إليها بعض "الصوص" لأستمتع بالقراءة والأكل معًا؟!

هل ذلك يجعل مني شخصًا خارقًا لقوانين القراءة، هل سيحزن مؤلف الكتاب أو يشعر بالإحباط لأنني لم أتبع نظام القراءة العالمي؟!

نحن فقط أصبحنا نهول من الأمور كثيرًا، نحصر تفكير الشخص في مظهره الخارجي أو بعض تصرفاته التلقائية. لا بُد أن نتجمل ونتصنع وجوهًا ليست كوجوهنا لنظهر بمظهر الشخص المثقف المعاصر لكل ما يدور حوله من نشاطات..

وإن رأينا شخصًا بسيطًا يتعامل بفطرته التي خُلق عليها لا نلبث إلا ونصدر حكمًا عاجلًا بحقه أنه شخص جاهل...

في حقيقة الأمر إنني لا أحب أولئك الأشخاص الذين يعيشون حياة غير حياتهم، ويتفانون في الظهور بمظاهر ليست مظاهرهم الحقيقية؛ كي يثبتوا للغير أنهم مثقفون وملمون بكل أنواع الثقافات الشرقية منها

والغربية.. وفي حقيقة الأمر إنهم لا يعلمون شيئًا من الأساس، هم عملوا على تزيين مظهرهم الخارجي، وتركوا داخلهم فارغًا، إن حاول أحد ما الغوص بداخلهم لعلم حقيقة أمرهم، ولم يصبح أحد يهتم ببواطن الأمور...

برأيي لا بُد لي ولمن هم مثلي، ممن يتعامون بفطرتهم دون تصنع، أن نبني لنا عالمًا خاصًا، نحيا فيه ونمارس فيه عفويتنا، وتلقائيتنا، بجميلها وقبيحها، دون أن تُصدر بحقنا أحكامًا لن نلتفت إليها من الأساس، لأننا وكما أخبرتكم نتعامل بتلقائيتنا ولا نريد أن نغيرها...

الآن أترككم وأعود لقراءة كتابي الذي تركته لأكتب لكم هذا الكلام، وأعود لشطيرة اللحم التي أعشقها..

نسيت أن أخبركم، لن أمانع إطلاقا أن تقرأوا هذا الكلام وأنتم تداعبون أصابع أقدامكم، أو تشربون اليانسون بدلًا من القهوة.. وسأكون سعيدة جدًا إن استبدلتم المشروبين بالبردقوش، فكما تعلمون هو أفضل كثيرًا ومفيد للغاية، أنصحكم بتجربته ولن تندموا..

الحب الأول

تلك النبضة الأولى التي نشعر بها تجاه أحد ما، وذلك الشعور اللذيذ الذي يغزو قلوبنا لأول مرة، أحلامنا الوردية التي تراودنا مع ابتسامة هادئة تصاحب كل ذلك..

****

من الأشياء التي لا يستطيع الزمن محوها من ذاكرتنا هو شعورنا بالحب الأول، تعلقنا بشخص بعينه، وفرحتنا وبهجة قلوبنا عند رؤيته، وذلك الشعور الذي يداعب قلوبنا الصغيرة فنشعر بالسعادة تسري في أوصالنا، وخُدر بسيط يذيب أرواحنا..

لا يمكن لأحدنا ألا يكون مر بتلك التجربة في طفولته، وإن كنا نتبين حقيقة الأمر فيما بعد وأنه كان تعلقًا بريئًا بشخص أحببناه بالفعل، ولكننا أحببناه أكثر من غيره، فتولَّد ذاك الشعور..

إن كنا لا نختلف على أن ذلك لم يكن حبًا بالمعنى الذي نعرفه الآن، لكننا لا نختلف أيضًا على أنه حب حقيقي نبع من قلوب نقية، قلوب لا تعرف إلا أن تحب بصدق، تحب من تشعر تجاهه بالألفة والمودة الحقيقية..

إن نحن بحثنا في الأمر سنجد أننا كنا نميل لمن يهتم بنا وبأمورنا، ذلك المدرس الذي كان يثني عليَّ دائمًا أمام زملائي، وتلك المدرسة التي أهدتني جائزة قيِّمة وأخبرتني أنني ولد طيب، وذلك الولد زميلي بالصف الذي دائمًا ما ينظر إلي، وزميلتي التي تأتي إليَّ كل يوم بشطيرة مربى لأنها تعلم أني أحبها، ولا أحب شطائر الجبنة البيضاء التي تعدها لي أمي كل صباح..

هكذا نعلم أن القلوب بفطرتها تميل لمن يهتم لأمورها، من يشعرها بأنها ذات أهمية كبيرة عنده.. الحق يقال، قلوب النساء هي أكثر من تفعل ذلك، لأن أغلب الرجال ينساقون خلف الأجمل شكلًا، فتلك الفتاة التي كانت تعد لك شطيرة المربى كانت الأجمل في الصف لذلك أحببتها، وكانت هي حمقاء لأنها اهتمت لأمرك..

كبرنا بعدها لنتذوق الحب بمعناه الحقيقي، نحب ولا نعرف لماذا ذلك الشخص خاصة، نجد أنفسنا مملؤة برغبة الاقتراب منه، تتمحور أحلامنا حوله، وتنساق قلوبنا خلف شعورها دون أية حسابات عقلانية، لنفيق ذات يوم على ألم يسكن قلوبنا بقدر محبتها. حب الطفولة أجمل ما فيه أنه خاوٍ من الألم إلا قليلًا، بينما أقسى ما في حب الشباب أنه خالٍ من السعادة إلا قليلًا، وكأنه خُلق ليُعذِّب قلوبنا به..

بالطبع محظوظون من يفوزون بحبهم ويتبادلون مشاعرهم مع من أحبوا، لكنهم نادرون، نادرون جدًا..

أب

ويحدث أن ينطوي الكون كله بين حرفين "ألف" و"باء"..

*** * * ***

أخشى أن تخونني كلماتي فلا أستطيع التعبير عما أؤمن به بداخلي عن معنى الأب في حياة كل فرد منا، فنحن بالفعل كل شيء بوجوده، ولا شيء في غيابه، وليست مبالغة إطلاقًا، إنها الحقيقة التي لا يدركها أغلبنا إلا بعد فوات الأوان..

إن كانت الأم مدرسة، فالأب حياة.. وإن كانت الأم حنانًا، فالأب أمان.. وإن كانت الأم حضنًا يأوينا، فالأب سند يحمينا..

الأب الحق، الذي يحتضن أبناءه ويُحسن تربيتهم، الذي يُخرج أبناءً أسوياء للمجتمع، وليس الذي يُخرج مرضى نفسيين مملوئين بالعقد والأمراض.. الأب الذي يبني رجالًا بحقٍ قادرين على الإصلاح وبنيان مجتمع صالح، ونساء صالحات لأن يكُنَّ زوجات وأمهات سويات..

كما يوجد آباء صالحون، كذلك يوجد آباء طالحون، وما أكثرهم في هذا الزمان!

يثيرون شفقتي عليهم، فهم يحولون عملًا يمكن ألا ينقطع بعد موتهم في ولد صالح قد أحسنوا إليه في حياتهم فيُحسن هو إليهم بعد مماتهم جزاء ما زرعوا فيه، فيدعو لهم أو يتصدق عنهم، فيكون سببًا في رفع درجتهم أو تخفيف العذاب عنهم. يحوِّلون كل ذلك إلى دعوة عليهم بدلًا أن تكون لهم، وإن كان ابنا ذا قلب طيب فسيكتفي بعدم ذكرهم بسوء..

إنهم في الحقيقة يثيرون رعبي، فأي شخص عاقل يستطيع أن يؤذي قطعة منه بالشكل الذي أصبحتُ أراه اليوم!

أتذكر أبي -رحمه الله- عندما كان يرى دموعي ما كان يهدأ له بال حتى يزيل تلك الدموع، ويرسم البسمة على وجهي فيُنار وجهه، لذلك كنتُ أعتقد أن كل الآباء مثل أبي، يحبون أبنائهم كما كان أبي يحبني وأخوتي، ويعاملونهم برفق كالذي كان يعاملنا به أبي، حتى حين قسوته علينا -إن نحن أخطأنا- كان -رحمه الله- ليّنًا، وكنت أعتقد أنهم يتقبلون أبنائهم على أي حال كما كان أبي يفعل معنا، ويفخر بنا..

وكذلك كنتُ أظن أن كل الأبناء يحبون آبائهم بنفس درجة حبي لأبي، فهو الذي يحتل المرتبة الأولى بقلبي ومن ثم الباقين، لكنني صُدمت بتلك القسوة التي تملأ قلوب الكثير من الآباء تجاه أبنائهم، ولا أعلم لها سببًا واضحًا، فتلك العلاقة التي تجمع بين أب وابنه لهي من أعظم العلاقات التي وجدت على هذه الأرض، خُلقت الأبناء زينة الحياة

لآبائهم، فكيف لشخص رُزق بعقل أن يكون سببًا في تشويه الزينة التي وهبها الله له!!

أسمع الكثير يتحدث عن عقوق الأبناء، لكن عقوق الآباء لأبنائهم لأشد وطأة بالنسبة لي؛ لأن عاطفة الأب تجاه أبنائه أقوى من عاطفة الابن تجاه والديه..

هل رأيت من قبل أبًا يعاني أمراضًا نفسية كعدم الثقة بالنفس، أو ربما الانفصام، أو أيًا من تلك الأمراض بسبب عقوق ابنه له؟!

على النقيض تمامًا، فكل أب يقسو على أولاده لا بد أن تجدهم يعانون الكثير من الأمراض النفسية حتى وإن لم تكن ظاهرة، بل إن أكثر المرضى النفسيين يكون سبب مرضهم الرئيسي هي التربية الخاطئة لهم، وعدم تقبلهم من قبل والديهم..

نحن نرى أنفسنا بأعين من نحب، ونستمد ثقتنا بأنفسنا من ثقتهم بنا، وأول علاقة حب تتولد بقلوبنا فطريًا هي حبنا لوالدينا، فكيف لنا أن نحب أنفسنا أو نتقبلها إن كان أقرب الناس إلينا يكرهوننا، ولا يتقبلونا!

ربما لا يكرهوننا بداخلهم ويحبوننا بالفعل، ولكننا نصدِّق ما نرى من أفعال، فكيف تحبني في حين أنني لا أرى منك إلا القسوة، كيف تحبني بينما تخبرني كل ساعة أنني عديم الفائدة وانني مجرد عبء ثقيل تَود الخلاص منه؟!

إن كنتَ بالفعل تحبني، فتقبلني كما أنا، بكل أخطائي، وخذ بيدي لتساعدني على إصلاح نفسي.. أنا منك، خلقني الله وأوصاك عليّ لتعلمني، وليس لتعاقبني. لن أخرج من رحم أمي وأنا متعلم الصواب والخطأ، لا أحد هكذا إن كنت تتخيل هذا، واجبك وحقي عليك أن تعلمني وترشدني، وإن أخطأت تقومني لا تكسرني.. صغير أنا مهما بدا لك أنني كبرت، سأظل أتعلم كما فعلتَ أنت، إن ما تراه خطأ مني اليوم، كنتَ أنت تفعله بالأمس حتى تعلمت أنه خطأ، إنني لن أتعلم إلا إذا أخطأت..

أمي

إلى المرأة التي لا يوجد مثلها على هذه الأرض..

كلما تذكرتُ ما سلبَته مني الحياة وهمَّ الحزن أن يصيب قلبي، تذكرتُ أنها أهدتني أما مثلكِ، فاكتفيتُ بكِ نعمة...

* * * *

لم أُجِد يومًا التعبير لكِ عما بقلبي، هذه الكلمات ما هي إلا نقطة في بحر حبي لكِ، أعلمُ أنكِ لن تقرئينها، أنا أكتب عنكِ ليعلم العالم أجمع أنه على هذه الأرض امرأة قد نجحت في أداء كل أدوارها بامتياز مع مرتبة الشرف، وأن هذه المرأة هي أمي، أعظم هدايا القدر لي، شمس حياتي التي تبثني من ضوئها ودفئها..

فليعلم كل من تقع عيناه على هذه السطور، أن كل كلمات اللغة منذ نشأتها وحتى فنائها لن تستطيع أن تصف جمال أمي كما هو حقيقة، ولا تستطيع أن تعطيها حقها من مديح تستحقه..

إنني بقلمٍ وثمانٍ وعشرين حرفًا، ولغة كاملة بمعاجمها ومراجعها لا أقدر على الحديث عن أمي كما يليق بها، وكل ما أفعله مجرد محاولات لن تفلح إحداهن في إيصال ما تراه عينيّ، ويفيض به قلبي..

الأم مدرسة، والأب حياة، كنت قد ذكرتُ هذا مسبقًا، لكنّ أمي كانت لنا مدرسة وحياة، كانت الأم التي تحتضن، والأب الذي يسند..

وُلِدَت، فكانت نعمَ البنت لوالديها، ونعمَ الأخت لأخواتها، ثم كَبُرت وتزوجَت، لتكون نعمَ الزوجة والسكن لزوجها، وبنتًا مرة أخرى لوالديّ زوجها، وأختًا لأخواته.. ثم شاء الله لها أن يتأخر حملها عدة سنوات، لتصبر وتكون نعمَ العبد الصابر الراضي بقضاء ربه، ثم يختبرها الله اختبارًا أصعب بمرض زوجها، لتثبت له أنها أيضًا راضية بكل ابتلاءاته. تحمَّلت مرضه وساندته، ووقفت جواره لتكون له أهلًا وعشيرة، لا تكلَّ ولا تملَّ ولا تشكي ثِقل حملها لمخلوق، حتى أقرب الناس إليها..

ثم يأذن لها ربها ويرزقها بذرية تقر عينها وجزاء لصبرها ورضاها، فتكون نعمَ الأم الرحيمة بأولادها..

كنتُ أراها تعاملُ أبي وكأنه كل أهلها، تتحمل عصبيته، وتلين له وقت شدته، وأبدًا لا تقف أمامه لتنازعه، وكان -رحمه الله- لا ينسى لها طيبتها، فكان يُحسنُ إليها مثلما تُحسنُ هي إليه، ولا يذكرها أمام الناس

إلا بالخير، كأنه يتباهى بها أمام العالم أجمع، وكانت هي بالفعل تستحق..

كتبَ الله عليها ابتلاءً آخر أشد حِملًا مما سبق، ففقدت زوجها، وما زلنا أنا وأخوتي صِغارًا لم نخرج للدنيا بعد، فتحملت عبء تربيتنا مع عبء إعالتنا، ليظن الجميع أنها ستفشل في قيادة سفينة حياتنا، فتقف هي بشموخ وتأبى إلا أن تخيب ظنونهم، لتسير بنا تلاطمنا الأمواج من كل اتجاه، وتعصف بنا الرياح، وما زالت هي تعافر بكل قوتها لتحمينا، وبكل حنانها لتطمئنا، فتتلاشى مخاوفنا، ونأمن بجوارها..

ترعانا حق رعاية، ولا تحرمنا شيئًا حتى وإن كنا لا نطلبه، تأتي لنا بكل ما تشتهيه أنفسنا قبل أن نُفصح لها أننا نشتهيه، تتفنن في إسعادنا، ولا تُظهر لنا ما بقلبها من ألمٍ حتى لا نحزن..

أتذكر جيدًا كم الأهوال التي قابلتها، وكم الذين أرادوا لها أن تفشل وحدها في سد احتياجاتنا لتمد لهم يدها، أرادوا أن يُذيقوها ذُلًا وضعفًا، فأذاقتهم هي بقوتها قهرًا وحقدًا. لم تلتفت يومًا إلى ما يقولونه، اهتمت بنا فقط، لتخرجنا كما أرادنا أبي أن نكون، رجالًا في قوتنا، ونساءً يتباهى بنا وبأخلاقنا، لنكون لهما ذرية تعينهما في الكِبَر في حياتهم، ونكون لهما دعوة ترفع درجتيهما في الآخرة، ففعلت ما أراد، وربتنا على أن نكون أناس صالحين، لا نحمل لأحد غلًا أو حقدًا، لا يغرُّنا مال ولا جاه،

علمتنا كيف نحفظ كرامتنا ولا نسمح أن نُهان، زرعت في نفوسنا أن نراقب الله في كل أفعالنا، ولا نخشى إلاه سبحانه..

كلما نظرتُ إلى هذه المرأة تعجبتُ منها، كيف لها أن تكونَ بتلك القوة، وذاك الرفق معًا، بل كيف لها أن تكون بتلك الشراسة التي تواجه بها من يحاول الاقتراب منا، وبذلك اللين التي تعامل به الجميع! إنها حقًا معجزة الهية..

كلما سئمتُ الحياة وصعوباتها، أنظرُ إليها لأعود وأرضى، لم أرَ بحياتي شخصًا أكثر منها كرمًا، وأحن منها قلبًا، وأكرم منها أصلًا.. إنها الشيء الوحيد الأكثر تميزًا بي..

لم يكن فراق أبي لنا بالشيء الهيّن، فلم يكن لنا سواه، لكنها قاست وتحملت لتملأ مكانه لكي لا نشعر بغيابه، لم تكن تريدنا أن نشعر بأن حياتنا ستسوء بعده، وقد فعلت.

أحببتُ أبي في حياته لمعاملته لنا، وأحببته بعد مماته لأنه أحسن الاختيار لنا حين اختار لنا أمًا كأمي، إنها حقًا في عينيّ أجمل نساء الأرض، وأفضلهم على الإطلاق، وإن كنتُ أحيانًا أغضبها لكن الله يعلم كم أنني لا أحبُ أحدًا مثلما أحبها..

يُتم

مؤلمة هي الحياة دون أب، تشعر وكأنك أضعف مخلوق وُجد على الأرض، ولا يجب أن تظهر ضعفك هذا لأحد، لا بد أن ترتدي قناع القوة أمام الجميع، وأن تُخبئ خلفه ضعفك وهشاشة قلبك.. عليك أن تبدو كجبل لا يهتز، لتداري شروخ روحك المتصدعة..

إن اليُتم ليس صفة، إنما هو مرض مزمن، تظل تعاني منه حتى الموت، ولا يوجد له دواء سوى أن تتقبل مرضك وترضى به لتتعايش معه، عليك أن تتقبل أنك ستحيا الباقي من عمرك وأنت فاقد لجزء منك، وليس بأي جزء.. إنه الأهم على الإطلاق...

****

منذ ولادتي وحتى سن السادسة عشر من عمري لم أكن أعي معنى تلك الكلمة، وحينما أدركت معناها كان ذلك عندما أصبحت صفة لي، آلمتني حد الصراخ، أتذكر بعد وفاة والدي وكنت حينها ما زلت في السنة الأولى من المرحلة الثانوية، حينما كان يسأل أحد المدرسين عن اليتامى في الفصل لم أكن أقف مع من يقفون، فقط كانت تسيل الدموع

من عيني وأتوارى من الجميع كأني أفر منهم، أو أفر من تلك الصفة التي أبغضها. إنها تذكرني بما لا أستطيع نسيانه مهما فعلت، فقدان أغلى ما أهداني القدر منذ ميلادي، تذكرني بكسرة ظهري التي تلقيتها مبكرًا.. لم أكن اعتدت تلك الصفة بعد، ولم أعتدها إلى الآن وأظن أنني لن اعتادها أبدًا..

إن الكثير من الناس لا يدركون مدى الألم الذي يسببه موت الأب، لا يرون الكسر الذي يخلفه غيابه، وإن كنا نبدو لمن يرانا أقوياء، لكننا وبداخلنا خلف قناع القوة ذاك، نعاني ضعفًا يقتلنا كل ثانية تمر علينا ونحن بمفردنا..

شعور اليتم لا يعلمه سوى من ذاقه، هو أشبه بشعور التعري بعد ستر..

اليتيم في تعريفي الخاص "هو شخص تجرد من حصنه الذي يحتمي به في معارك الحياة، فيصبح جنديًا دون سلاح يحارب وحده في الخواء ولا يجد من يحتمي به من الأعداء، يظل يتلقى الضربات تباعًا، وعليه أن يبقى صامدًا في المواجهة التي هو الأضعف فيها على الإطلاق، وإن هو أبدى ضعفًا أو حاول التعبير عن خوفه فإنه سينال من كلمات التقطيم ما شاء." "أنت لست أول ولا آخر من يفقد أباه، المئات كل يوم يفقدون آباءهم." بالفعل أنا لستُ أول من يفقد أباه، لكني من أولئك الذين كان أبوهم كل شيء لهم، وأنا دونه لا شيء، ربما هم يفقدون أبًا، لكنني

فقدتني يوم فقدته. كان حصني الذي أحتمي به من المخاطر، وبدونه أنا محاط بالطعنات من كل جانب، كان اليد التي تربت على يدي فتقويني، ودون ربتة يده ضعيف أنا ولا قوة لي، كان الرأي الذي يرشدني للطريق، ودون رأيه أصبحت متخبطًا...

إنني ومنذ وفاته أصبحت أشعر أن الذي دُفن حينها كان أنا وليس أبي، أبحث عنه لأجدني فيه، لا تكتمل حياتي إلا بوجوده، ولا تكتمل سعادتي إلا برؤيته..

العديد من المواقف تمرُّ بي فتكشف لي مدى ضعفي دون أبي، وإن كنت أحاول أن أبدو متماسكة لمن حولي، رغم أن الجميع يعلم ما كان يعنيه لي أبي، وكم آلمني رحيله عني. الدنيا بأسرها لم تستطع أن تعوضني فقده، فرجل مثله لا يعوض غيابه إلا وجوده، ولا يملأ مكانه بقلبي إلاه..

ما زلتُ وبرغم تلك السنين التي مرَّت، حينما يحدث شيئًا يجعلني أشعر بالخوف أو بالحاجة إلى وجود أبي، دائمًا ما أذهب إلى ملابسه، أضمها وأحتمي بها، وأظل أبكي حتى تتبلل ملابسه بدموعي، وكثيرًا ما أرتدي ملابسه لأشعر بضمته لي، أتخيله يمسح دموعي كما كان يفعل دائمًا، فأبتسم له ابتسامة مشبعة بالألم الذي أعانيه دونه...

حينما أمرُّ بفتاة تتعلق بذراع أبيها وتمشي بجانبه بتفاخر، ترتسم البسمة على شفاهي تلقائيًا، بينما الكثير من المشاعر تمتزج بقلبي، حزن على

فقداني لأبي، وفرحة لتلك الفتاة، ودعاء خفي من قلبي ألا يذيقها القدر ما أذاقني من فقدان، وحنينًا إلى لحظة كنتُ أعيش نفس الموقف، أسير بجوار أبي وأتمسك بذراعه وقلبي يرفرف سعادة، وقدماي تكاد تطيران من فرط سعادتي بمجاورة ذلك الرجل العظيم الذي لم أرَ بعمري رجلًا مثله، كنتُ وما زلت أتفاخر بكوني ابنة لرجل مثله، فعن أي ألم تتحدثون؟!

تلك الدموع التي تسكن مقلتي وأجاهد بكل ما أوتيت من قوة لأسيطر عليها، لكنها وبكل ما تحمل من حنين تذيب حصون قوتي المزيفة لتنهار حصون سجنها، وأستسلم لها فتتحرر وتشق طريقها إلى خدي لتعبر عن اشتياقها الذي لا تستطيع كتمانه...

الحقيقة ألا أحد يعلم مقدار ما تعانيه الفتاة بعد فقدان أبيها، إنها لا تفقد أبًا فحسب، وإن كان فقدان الأب وحده ألمه يكفي، لكنها تفقد سندًا، وحبيبًا وصاحبًا، تفقد أمانًا كانت تحتمي به من شرور الحياة، وتغدو الحياة بعده محفوفة بالمخاوف..

ذاك فضلًا عن أن تيتُم الفتاة قبل أن تتزوج، فتلك مأساة من نوع آخر..

تظل تشعر بالنقص، والضعف، والخوف من كل من يحاول الاقتراب منها، لا تريد لأحد أن يرى مدى ضعفها، وإن فعلت فإنها تشعر في قرارة نفسها أنه يمكن لأي أحد أن يستغل ضعفها ذاك، وتظل تفكر: "من

سيسلم يدها لزوجها يوم زفافها، من سيخبر زوجها بأنها أغلى ما يملك، وأنه لن يسمح لأحد بالمساس بها؟!" لن يبكي على مغادرتها المنزل أحد، بل ستبكيه هي في ذلك اليوم حينما تتذكر أنه ليس معها..

إن اجتماع الدنيا بأسرها لا يستطيع أن يعوض شخصًا فقدان أبيه، فرفقًا بقلوب متصدعة لا تحتمل مقدار لمسة، رفقًا بنا حتى وإن كنتم لا ترون منا سوى أننا نبتسم، واعلموا أن خلف ابتسامتنا تلك ملايين الأوجاع التي نداريها بتلك الابتسامات المزيفة..

رسائل إلى أبي

الوحيد الذي تمنيتُ أن يبقى معي إلى أن يفنى عمري، وهو أول من رحل عني، لكنه أبدًا لن يرحل مني، لذا أكتبُ له..

* * * *

"تلك الرسائل التي أخطها لك بقلمي، لم تكن أبدًا مجرد حروف تُنقش، إنما هي صرخات لم أقو على إخراجها أصوات، ودموع قد جفت من مقلتي فأذنت للحبر أن يحل محلها، هي ألم يسكن بروحي، وحبرها مستمد من نزيف جروحي.. هي أكبر من مجرد قلم يتحرك ليرسم كلمات، هي آهات أود كل يوم أن تسمعها أنت.. فهل يمكن للحروف وهي صامتة أن تعبر عن تلك الآهات، هل يمكن لحروف صماء أن تصف حجم الألم الذي يسكن شق صدري الأيسر، هل يمكن لكلماتي هذي أن تَعبر عالمي الدنيوي وتأتي إليك في مثواك لتوصل لك معاناتي بعد رحيلك عني؟!

هل يمكن يا أبي؟!"

* * * *

"منذ اللحظة الأولى التي أبصرتُ فيها الحياة، وأنا أعلمُ أنك وفي لحظة ما ستفلت يدك عن يدي وتتركني وحدي أواجه الحياة وصعوباتها. كنت أعلم أنك تجهزني لذلك، تزرع في نفسي القوة وتعتمد عليَّ في شتى الأمور، لتعلمني الاعتماد على نفسي وكيفية التصرف، أُخبرك يا أبي أنني تعلمت كل ما أردتني أن أتعلمه، لكنك نسيت أن تعلمني الشيء الأهم والأصعب الذي سأواجهه في حياتي، نسيتَ أن تعلمني كيف أحيا بدونك، وكيف أواجه الحياة وأنت لست بجانبي، وهذا أصعب ما أعانيه في حياتي، وما زلت لا أعرف كيف أواجهه.."

****

"رغم أنني كثيرًا ما تحضرت لتلك اللحظة التي سأسمع فيها خبر وفاتك وفراقك لعالمي، إلا أن الحقيقة اختلفت كثيرًا عن كل ما توقعت، شعرتُ حينها أن أحدًا قد هوى على قلبي بصفعة مدوية تصدعت لها جدران قلبي، وأحدثت شرخًا عميقًا بروحي لم يفلح شيء في ترميمه، وجرحًا ما زال ينزف وسيظل إلى أن آتي إليك...

لم أصرخ في بداية الأمر، كأن الخبر ألجم حبالي الصوتية، وشل عقلي عن استيعاب ما يجري حولي، هرولت إلى خارج البيت لآتي إلى حيث أنت، وكم كنت بعيدًا! وعندما أتيت ورأيتك، ناديتك كثيرًا، كنت أظن أنك ما إن تسمع صوتي يناديك ستُلبي ندائي وتنهض لتمسح تلك

الدموع التي أغرقتني، لكنك بقيتَ على صمتك، فعلمتُ حينها أنك بالفعل قد فارقتني.. إلى الأبد."

****

"كيف حالك في مسكنك الجديد؟! أعلم أنه أفضل كثيرًا من هذا المكان الذي تركتني فيه وحدي..

يليق بك يا أبي، يليق بك مجاورة الصالحين الذين جاهدت وصبرت كثيرًا على آلامك لتكون معهم..

أشعر أنك غدوت أفضل حالًا بعد مغادرتك الدنيا..

أخبرني يا أبي، هل تشتاق لي كما أفعل؟! أظن أنه لا يوجد بعد الموت اشتياق، هذه المشاعر توجد في الحياة الدنيا فقط، لكني أتيقن من أنك تنتظر يوم قدومي ولقائي بك؛ لأجاورك وأظل بجانبك كما كنت دائمًا..

ها أنا ذا، أجاهد مثلك وأحاول الصبر على كل بلاء أواجهه كما كنت تفعل لأنال ما نلته أنت، وأكون في نفس درجتك في الجنة، فقط أريدك أن تدعو لي أن يزيد الله من قوتي لأجتاز الاختبار كما اجتَزته أنت بنجاح.."

****

"نجمة في السماء يزداد ضوئها كلما نظرت إليها.. أشعر وكأنها أنت، رغم أنني لست ممن يؤمنون بتلك الأسطورة التي تقول أن الذين يموتون يتحولون إلى نجوم تضيء في السماء، لكني أؤمن بأن النجوم والسماء جميعها تذكرنا بمن رحلوا عنا، ألسنا في الصغر كلما توفي أحد وسألنا عن مكانه أخبرونا بأنه ذهب إلى السماء؟! لذلك أؤمن بأن السماء تذكرنا بمن هجروا الأرض، وارتفعت أرواحهم لترفرف في السماء، حتى وإن كنا لا نراهم..

يهون ذلك من وقع أمر الفراق الأبدي على قلوبنا، يوهمنا أننا نتحدث إليهم مباشرة، يشعرنا بأنهم يروننا ويبتسمون لنا، وإن كنا نعلم حقيقة الأمر بداخلنا بأنهم ليسوا نجومًا ولا يروننا ولا يبتسمون لنا، لكن بعض الوهم يهون على أنفسنا ألمها..

على كلٍ، فأنت تعلم أنني أحب النجوم كثيرًا، ربما يكون ذلك أيضًا سببًا في أنني أراك وأتخيلك في كل جميل أحبه، لذلك سأصدق أن تلك النجمة التي تضيء كلما نظرت إليها هي أنت، سأصدق أنك تراني وتسمع همسي إليك.."

****

"لستُ بخير يا أبي، منذ رحيلك وأنا أحاول الثبات قدر استطاعتي لكن الأمر يفوق احتمالي، ظننتني في بداية الأمر أقوى من ذلك، لكني

اكتشفت أن قوتي كانت مستمدة من وجودك معي، فمن أين لي بالقوة بعد رحيلك عني؟!

تبددت أحلامي جميعها بفقدانك، فكل أحلامي كانت مرتبطة بك، كل حلم تمنيته يومًا كان لأجلك، وبعدك لم تصبح لأحلامي كلها قيمة..

أتدري ما الأمر الأكثر ألمًا؟! أن أحدًا لا يفهم مقدار الألم الذي أعانيه بعد موتك، لا أحد يصدق أن غيابك قد يفعل بي ما فعل، حقيقة أنا ألتمس لهم عذرًا، فإنه لا أحد يعلم مقدار محبتي إليك وتعلقي بك، الله وحده يعلم بأنك كنتَ حياتي بأكملها، كل شيء كنتُ أفعله كان لأجلك فقط، تفوقي في الدراسة، واهتمامي بشؤون البيت، ورجاحة عقلي التي كان الجميع يُقِرُ بها، كل ذلك كان فقط لأجل أن ترضى عني، ما كان شيء يسعدني أكثر من أن أراك فخورًا بي، كان ذلك مبتغاي من الكون كله، ولم تعد لي غاية بعد فراقك إلا أن ألتقيك مجددًا.. فاللهم لقاء قريب غير بعيد."

* * * *

"رأيتك اليوم حلمًا، احتضنتك بقدر اشتياقي لك، تمسكت بملابسك وأنا أبكي بين ذراعيك وأرجوك ألا تتركني مجددًا، تمنيت أن أعيش في ذلك الحلم طويلًا؛ لأظل في حضنك أطول وقت ممكن.. بكيت كثيرًا

حتى أنني عندما استيقظت وجدت الدموع تبلل وجهي فأكملت البكاء على أن لقائنا كان مجرد حلم..

مؤلم ذلك الأمر، أن يكون المكان الوحيد الذي يسمح لنا برؤية من نحب هو الأحلام..

لكنني لن أنكر أنها تروي بعض الظمأ الذي تتشقق له قلوبنا اشتياقًا، ترسم بسمة ولو عابرة على شفاهنا، تجعلنا نشعر بأحضان من أخذهم القدر من أحضاننا.."

****

"هناك من تقدم لخطبتي اليوم، كَبُرت صغيرتك يا أبي، وعليها الآن أن تختار زوجًا، ما زلت أتذكر كلماتك التي تحدثتَ بها لأحد أقاربنا أمامي.. "لن أقبل لها بأي شخص إلا من يعرف قدرها." لكن في غيابك لا أحد ينظر للأمر كما كنتَ تنظر إليه أنت، هم فقط يريدون التخلص مني وكأنني عبء عليهم، لا مانع لديهم أن يُلقوا بي إلى أول من يتقدم حتى وإن كنتُ لا أرتضيه، لا يُهم رأيي في حضرة آرائهم، ولا يهم قبولي ما دام هم قد قبلوا وأعلنوا موافقتهم، لا شعور أسوأ من شعوري بأنني نعجة تُباع، لا فتاة حرة أبسط حقوقها أن تختار من يشاركها عمرها، إنهم يُصرُّون أن يُشعروني بيُتمي وضعفي، ليس معنى أنني يتيمة أنه قد سُلب حقي في تقرير مصيري، وإن هم يظنون ذلك فإنني سأحارب لأنال

حقي المسلوب من قِبَلهم، أترى يا أبي كم تتأذى صغيرتك في لحظات من المفترض أنها أسعد لحظاتها؟!"

* * * *

"اشتقتُ إليك، وليس هذا بالأمر الجديد، فذاك الاشتياق لم يفارق قلبي منذ فارقتني أنت، ذاب قلبي حنينًا، وتمزَّق ألمًا، وجفَّت الدموع من مقلتي من كثرة البكاء.. تلبَّدت سمائي بغيوم آلامي، وما زلت أنتظر أمطار الفرح التي تفكك تلك الغيوم."

* * * *

"ها أنا ذا يا أبي، أتخرج من كلية غير التي أردنا يومًا، لكنني راضية بما وصلت إليه، ربما لم أُحقق حُلمنا الذي تمنيناه سويًا، لكنني حققت ما يجعلك فخورًا بي، لم أخلف عهدي معك أبدًا، لم أسمح للدنيا بكسري. حاربت ولم أستسلم، وتصديت بكل شجاعة أمتلكها، أستقوى بالله أولًا كما علمتني، ثم بك وبكل ما علمتني إياه حتى نجحت في تحقيق ما أريد، وجودك حيًا بقلبي قد ساعدني على المواصلة من جديد في كل مرة كان رحيلك يؤلمني، ويجعلني أتوقف عن المسير، ها أنا قد اجتزت اختبارًا آخر بنجاح، فهل أنت سعيد بي؟!"

* * * *

"لماذا يا أبي؟ لماذا كنت جميلًا للحد الذي جعلني أفكر أن الحياة كلها بجمال ابتسامتك، وأنها مليئة بالأمان كحضنك، ونقية كقلبك، لماذا واريت عني ذلك الوجه البشع من الحياة، فإذا ما رحلت أنت رفعت قناعها البريء لأكتشف بشاعة حقيقتها.. أم أنها كانت كذلك دائمًا وأنا التي لم أستطع الرؤية جيدًا، لِمَ لا وقد كنتُ أتخيل أن الدنيا هي أنت."

****

"كان عُرسي البارحة، طوال اليوم وأنا أنتظر مجيئك، أبحث بعيني عَلِّي أجدك بين مَن حولي، أتخيل أنك ستدخل عليّ وتأخذني بين أحضانك وتبارك لي حياة جديدة، تمنيتُ أن تراني وأنا عروس برداء زفافي الأبيض، أسمع كلمات غزلك بي، ثم تلفت إلى زوجي وتوصيه عليّ، تخبره أنِّي فتاتك المدللة التي لن تقبل أن يمسها سوء، كم تمنيت أن أرقص معك على موسيقى هادئة، فأنت حبي الأول الذي لن يُنسى ولن يزول من قلبي، لكنك لم تأتِ، ولم أحظى باحتضانك، ولم يُخبر أحدًا زوجي بما كنت ستخبره، ولم تتحقق أمنيتي في رؤيتك لي وأنا عروس، لم يحدث أي شيء من كل ما تمنيت يا أبي، وكم آلمني ذاك!

صداقة

ثم يهبك الله صديقًا تتكئ بكل ثقلك على كتفه فلا يميل، تربت يده على يدك فيُشعرك بأمان الكون يحيط بك في وجوده..

ذاك الشخص الذي ما إن تشعر بضعفك تذهب إليه لأنك تعلم أنه الوحيد الذي يستطيع أن يبُثَّك ما تحتاج من القوة..

تشعر أنك متخبِّط فتتحدث معه لتترتَّب أفكارك، وتفهم نفسك التي يفهمها هو أكثر منك.

****

إن من أعظم الأرزاق في هذه الحياة هم الأصدقاء، قليلون من يحظون برفاق يستطيعون أن يطلقوا عليهم صفة "سند"، أصبحوا نادرين جدًا، لكنهم برغم ندرتهم لا زالوا موجودين..

وحديثي هنا عن الأصدقاء الحقيقيين، فليس كل من كان قريبًا منا يُعد صديق..

ذاك الشخص الذي غدر بك وكان سببًا في أذاك لم يكن صديقًا، بل كان عدوًا على هيئة صديق..

أقصد بحديثي الأصدقاء الذين ما إن تجد نفسك في موقف تحتاج فيه إلى من يقف بجانبك، وجدتهم يحيطون بك، وما إن تميل حتى تجد أيديهم ممدودة إليك لتسندك فلا تسمح لك بالسقوط..

الصديق هو من يُهون عليك كل عسير تمر به، ولا يتركك أو يتخلى عنك في مأزق أبدًا.. هو من تُهرع إليه عند خوفك لتحتمي فيه.. هو من يرشدك إلى طريق الصواب، ويعينك على تقويم نفسك وإصلاحها.. هو ما يعنفك إن أخطأت، ثم يحتضنك ويربت على كتفك كأنك ابنه، يقسو عليك من خوفه عليك.. هو أب بعد أب، وأخ بعد أخ.

في قصتي، جعل الله أصدقائي هم الوجه المبهج من الحياة، هم نقطة قوتي التي تعينني على المواصلة في طريقي مهما واجهت من صعاب، وهم نقطة ضعفي التي أخشى فقدانها يومًا، أو أن يمسهم ضرر لا أحتمله.. هم بهجة قلبي وسعادته، وراحته، وأمانه، وسنده.. إنني حتى لا أستطيع تخيل الحياة وهم ليسوا بها، فكل جميل يكتمل جماله بهم، وكل ألم عظيم يهون بقربهم..

لو أنني أطلقت العنان لقلمي ليتحدث عن معنى الصداقة الحقيقية فسيكتفي بذكر أسماء أصدقائي.. ولو طُلب مني ذِكر مواقف لهم معي تُدعم حديثي عنهم، فسيطول الحديث ولن يكفي كل ما أود ذكره..

يقولون إن وقت الشدة هو ما يعرفنا من يحبنا بصدق ومن يمثل لنا الحب، ولم تمر عليّ شدة إلا وكان أصدقائي هم أول من يقدم لي يد العون..

خضعت ذات يوم لعملية جراحية، وكان المشفى في بلدة أخرى غير البلد التي نقيم فيها، أصروا جميعًا على مرافقتي والذهاب معي، في ذات الوقت الذي لم يسأل فيه عني أحد من أهلي.. وعندما عدتُ إلى المنزل لم يفارقوني وظلوا جميعًا بجانبي وقتًا طويلًا، زال كل ألم كنتُ أشعر به، وتبخر شعور الحزن لعدم سؤال أهلي عني، فكيف لي أن أحزن وقد وهبني الله أصدقاء مثلهم؟!

في كل مرة أمر بفترة اكتئاب وأنعزل عن العالم أجمع يظلون بجانبي إلى أن أعود للحياة مجددًا.. وفي كل مرة أُفلتُ يدي عن الكون كله، يتمسكون هم بيدي بشدة ولا يتركونني أبدًا.. وفي كل لحظة أفكر فيها في الرحيل وترك كل شيء، أتذكرهم فأتراجع سريعًا.. إن كان شيئًا يستحق أن أحيا لأجله بعد أمي وأخوتي، فبالطبع سيكون أصدقائي..

وإن كنت لا أعرف كيف أعبر لهم عن مكانتهم بقلبي، لكني أتيقن أنهم يعرفونها جيدًا، ولو أن لي أمنية واحدة، ستكون رؤيتهم جميعًا سعداء..

الأصدقاء عزوة، وحياة أخرى، حياة لا يوجد فيها سوى السعادة، هي عالم داخل العالم، ركن هادئ نركن إليه عندما تضيق بنا الحياة، وكتف نستند إليه إن مالت رؤوسنا، وحضن نستكين إليه إن تعبنا المسير..

تلك الأوقات التي نقضيها بصحبتهم لا يضاهيها ثمن، فنحن جميعًا لا نضحك وتخرج الضحكة من أعماق قلوبنا إلا مع أصدقائنا..

على جانب آخر فهناك من يثيرون شفقتي عليهم، أولئك الذين لا يؤمنون بوجود ما يُسمى صداقة، هؤلاء الذين يتفانون في إبعاد كل من يقترب منهم ولا يستطيعون أن يأمنوا لأحد، ربما كانت قناعتهم تلك نابعة من تجربة قاسية مروا بها، ولكن ليس معنى أننا تأذينا مرة ممن كنا نظنهم أصدقاء بأن الجميع مثلهم، بل هناك من يستحقون أن نفتح لهم أبواب قلوبنا على مصراعيها، فكلنا بحاجة إلى صديق يؤازرنا ويكون لنا عونًا في السراء والضراء..

فهنيئًا لي ولكل من وجد أصدقاء حقيقيين..

قصة فشل

أن تشعر وكأن الدنيا تقف معادية لك، أن تسلبك كل ما تملك وتتركك على رصيفها بلا مأوى، تتركك وحدك في شتاء قارس لياليه حالكة السواد، ورياحها تعصف بروحك، وجسدك يرتجف ولا تجد من يدثرك ..تشعر وكأنها ألقت بك في ساحة حرب، مجردًا من كل أسلحتك، وعليك أن تقاتل العدو وحدك وليس عدوًا واحدًا، بل أعداء كثر، ولا يكون أمامك سبيلًا للنجاة سوى أن تنتصر، فهل ستفعل؟ !

****

هكذا شعرت في وقت ما، شعرت بأنني خسرت كل شيء دفعة واحدة، لم يصبح معي شيء على الإطلاق، حتى نفسي أحسست حينها أنني فقدتها، شهر واحد ذقت فيه كل أنواع الألم، وتعرضت لكل أنواع الخسارة، بداية بخسارة أغلى إنسان على قلبي، ثم رسوبي في سنتي الدراسية الثانية بالمرحلة الجامعية، التي كانت بمثابة القشة التي قصمت ظهري، ولو أنها لم تكن أبدًا قشة. أصبحت بعدها مجرد جسد خاوٍ من الروح وإن كان ما زال يتنفس، لم يكن نجاحي بالكلية حلمًا من

الأساس، كنت أعتقد أنه روتين عادي.. لم يسبق لي أن رسبت ولا خُيل إليّ يومًا أنني قد أفعل ..

جردتني الحياة من كل أسلحتي التي كنت أحتمي بها، فانهارت حصوني، وظهر ضعفي جليًّا، لأصبح فتاة يتيمة فاشلة ...وددتُ لو أنني أستطيع وصف الشعور الذي اعتراني حينها، لكن لا كلمات يمكنها أن تصف ما عانيته، مررت بأسوأ فترة في حياتي، كل يوم يمر عليّ أرى نفسي بنظرة دونية، كنت أراني إنسانًا لا يستحق العيش وسط الناس، فكرتُ كثيرًا في الابتعاد عن أصدقائي، فشخص مثلي لا يستحق أن يستأنس بأصدقاء مثلهم، لكنهم لم يسمحوا لي أبدًا بالبعد عنهم .. شهران من العذاب، لم أستطع أن أتقبل فشلي ذاك، لم أتقبل ضعفي وهواني، وفقدت الرغبة في مواصلة الحياة، واستسلمت لروتين يومي، كنت أعاقب به نفسي، ولا أدري على ماذا أعاقبها وأنا أعلم بداخلي أنها لا ذنب لها فيما حدث ..كان شعور بالذنب ينخر قلبي ووددتُ التخلص منه بعقاب نفسي ذاك ...

كل يوم كان يمر عليّ كنت أفكر، ماذا فعلت ليحدث لي كل هذا،على ماذا أعاقب؟ !

تذكرت قصة دكتور مصطفى محمود حينما مرّ بفترة مرض جعلته يلتزم السرير لثلاث سنوات، قرأ فيهم ألف كتاب، وهو ما جعله يصل إلى علمه ذاك ..

فكرت، ماذا لو أن الله بعث لي بتلك السنة لأتعلم فيها ما لم أكن لأتعلمه لو أنني نجحت؟ !

وبدأت بالتغيير، أقسمت أنني سأعوض ذلك الفشل، وبدأت في إشغال وقتي بالقراءة، بجانب أنني وجدت عملًا بسيطًا لأعتمد على نفسي في كل ما يتعلق بالمال ..

لم يكن يمر يوم إلا وأنا أكتسب فيه شيئًا جديدًا، حضرت العديد من الدورات التدريبية، وكونت الكثير من العلاقات مع أناس في شتى المجالات، كان تحديًا لنفسي ولجميع من حولي بأنني سأنجح، الأسلحة التي فقدتها سأعوضها بأسلحة غيرها أكثر قوة، تحاملت على نفسي لأقف من جديد وفعلت.. ليمر العام الأول وقد حققت فيه الكثير، وتبدلت أحلامي الصغيرة بأحلام أكبر ..

تعلمت كيف أستغل كل عثرة تمر بي، تعلمت كيف أتقبل نفسي كما هي، وأنه لا أحد سيقبلني بضعفي وفشلي إن لم أقبل أنا نفسي أولا ،تعلمت كيف يخُلق النجاح من رحم الفشل، وكيف أواجه الصعوبات وأقف أمامها بكل قوتي مهما شعرت بداخلي أنني ضعيفة ..

طريق جديد بدأت السير فيه، طريق لا يعرف إلا النجاح، وإن تعثرتُ في منتصفه فلقد تعلمتُ كيف أقف من جديد وأواصل السير إلى النهاية المنشودة ..

تلك الفتاة التي كانت تبكي قبل سنة على رسوبها، ها هي تسجد شكرًا لربها على تلك المحنة التي أهداها إياها، المحنة التي صنعت منها صورة أفضل وأقوى مما كانت عليها قبلًا ..

واصلت سيري في طريقي وأنا أكثر قوة، وأشد عزيمة وإصرار على النجاح، وفي ظل عامين فقط تبدَّل الفشل بنجاح مبهر، لو أن أحدًا أخبرني أنني سأصل إلى ما أنا عليه الآن لوصفته بالجنون، فشتان بين ما كنته منذ عامين وبين ما أصبحت عليه الآن، يكفي علاقتي بربي التي أصبحت أفضل كثيرًا من ذي قبل، ملازمتي للقرآن ومحافظتي على الصلاة، وإيمان ترسخ بقلبي أتمنى من الله أن يثبت قلبي عليه، إيمان بأن كل ما يحدث لي فهو خير، حتى وإن كنتُ لا أرى ذلك، ويقين بأن الله سيجبر كسر قلبي، وها قد فعل.

وحدة

هل نختار وحدتنا، أم أن هناك ما يجبرنا عليها،

أم أنها في بعض الأحيان تكون اختيارًا إجباريًا؟!

*** * * ***

من منا لا تأتي عليه لحظات يشعر فيها أنه وحيد، وحيد رغم أنه محاط بالجميع..

الوحدة وإن تعددت أسبابها إلا أنها تشترك في نفس الشعور، شعور بالفراغ، الضياع والهوان..

تشعر أنك خائف، تفقد شعور الوَنَس، لذلك فإن الكثير من الناس يفضلون أن يستمروا في علاقات ربما تسبب لهم أذى كبير، على أنهم يضحون وحيدين..

الكثير يمتلك خوفًا شديدًا من شعور الوحدة، فيختار ألم البقاء على ألم الرحيل، مُعذب بين هذا وذاك، إلا أنه يرى عذاب الونس أهون من العذاب وحيدًا..

نرى كثيرًا شخصًا ما ما زال يستمر في علاقة صداقة أو حب يلاقي فيها عذابًا مستمرًا، يعود لنفس الناس الذين يستهزئون به، ويكيلون له الألم أكيالًا، يعاملونه على أنه لعبة بين أيديهم، حد أنهم يعتقدون أنه لا يشعر، لا يحس بما يفعلونه به، ولا يدرك أنهم يسخرون منه، لا يمرحون معه كما يظنونه يعتقد، الحقيقة أنه يعلم، ويدرك، ويتألم قلبه وتصرخ روحه من فرط عذابها، تنزف جروح قلبه دموعًا لا يراها إلا هو وحده، لكنه يعلم في قرارة نفسه أنه لن يجد السعادة إن هو رحل عنهم وبقيَ وحيدًا، يخشى عذاب الوحدة، يهاب الجلوس وحده، كأنه ناقص لا يكتمل إلا بهم، لذلك يحتمل، ويتغاضى عما يفعلونه به، يحاول إقناع نفسه أنهم يفعلون ذلك لأنهم يحبون أن يهرجوا معه، وهو أكثر من يعلم أنه يكذب على نفسه..

وتلك الفتاة التي لا زالت تعود لنفس الرجل الذي يعاقبها على حبها له وبقائها معه، تتحمل عذابه وإهاناته لها، وتعود له كلما افترقا، ربما يعتقد الناظر إليها أنها مريضة، تحتاج لعلاج لقواها العقلية، وربما يظنُ البعض الآخر أنها تستحق ما يُفعل بها، لأنها هي التي تختار أن تعود إليه بعد كل ما يفعله بها..

حتى وإن كنتُ أتفق مع من يرونها تحتاج لعلاج نفسيّ، إلا أنني أرى أنها تحتاج علاج من خوفها من شعور الوحدة، فهي بداخلها تود لو أنها

تتخلص منه، لكنها تخشى الوحدة وتتألم منها أكثر من ألمها من تلك العلاقة، لذا تهرب من وحدتها إليه، وتهرب من ألم أكبر بالنسبة لها إلى ألم ربما تراه هي أهون..

وإن كنتُ لا أتفق مع هؤلاء أبدًا، إلا أنني أشعر بالشفقة تجاههم، فأن تكون كل اختياراتك مؤلمة، ويجب عليك أن تختار بينهم، وأن يكون أقلهم ألمًا أهدرهم كرامة، فذلك ليس بالشيء الهين أبدًا..

على جانب آخر، من يخافون الاقتراب من أي أحد، ينأون بأنفسهم بعيدًا عن الناس، لا يحبون الاجتماعات ولا الازدحام، يرون في القرب من الناس أذى، فيختارون تحمل وحدتهم، على أن يقتربوا ممن يؤذيهم، فيتركون العالم ويعتزلون الناس، ويحتضنون أنفسهم بأنفسهم، يربتون على أكتافهم بأيديهم، يحبون الظلام ويفضلونه على النور..

هؤلاء أيضًا يتمنون أن يتركوا تلك الغرفة التي ملّوا منها، يريدون أن يحتضنهم أحدهم ليبث لهم أمانًا قد غاب عنهم، يريدون بشدة من داخلهم أن يتسلل أحدهم إلى عالمهم ليشاركهم فيه، لكن الخوف من أن يؤذوا يتحكم بهم..

أما من يتعاملون مع الناس ولا يهابونهم، ورغم ذلك يشعرون بالوحدة من داخلهم، هؤلاء الذين يبحثون عمن يشبههم، من يستطيع فهمهم،

من يؤنس أرواحهم من الداخل، ولكنهم لا يجدونهم، لذلك يشعرون أنهم فارغون من داخلهم. هناك خواء يسكن أرواحهم، ويظلون يبحثون عمن يؤنسهم، إن كان صديقًا أو حبيبًا أو أخًا، المهم أن يجدوا من يشابهونهم، من يشعرون معهم أنهم ليسوا وحيدين..

الوحدة ليست دائمًا اختيارًا، وليست دائمًا إجبارًا، فكثيرًا ما تكون اختيارًا إجباريًا..

موت

يعتقد الجميع أن الموت يأخذ الميت فقط، لكنّ أحدًا لا يُدرك أن الموتُ يأخذنا نحن من أنفسنا، عندما يموت من نحب، حتى وإن بقينا كما نحن من الخارج، فإن جزءًا عظيمًا منا يُدفن مع جسده..

****

دائمًا ما كنتُ أهاب الموت، وأخاف على كل من حولي منه، لا أحتمل فكرة أن يكون أحد بجانبي هذه الساعة، ثم وفي الساعة التي تليها لا أجده، لم يعُد موجودًا على هذه الأرض، بل احتضنته بداخلها لتواريه عني..

رغم أنني أؤمن أننا سنلتقي مجددًا حين يحين موعدنا نحن، لكن شعور الفراق قاتل، خاصة إن كان سبب الفراق هو الموت، فذاك يعني أننا وإلى حين أن يُقضى أجلي سأحيا دون أن يكون هذا الشخص معي..

للفراق أوجه عديدة، أشدها قسوة الموت، فمن يفارقوننا أحياء تظل هناك فرصة بلقائهم مرة أخرى، يظل بداخلنا أمل في عودتهم، أما الموت فلا فرص فيه ولا آمال..

حينما مات أبي حزنت كثيرًا، وشعرتُ أن ظهري انكسر حقيقة لا مجازًا، أذكر يوم وفاته جيدًا، صرخاتي ودموعي، وعدم استيعابي للأمر من الأساس..

ثم بدأت الدموع تخف، والصرخات تهدأ، ومرت الأيام كثيرة، لكن تلك الكسرة ما زالت كما هي إن لم تكن أكبر..

الذين يقولون إننا نعتاد غيابهم مخطئون، فنحن لا نعتاد إلا الألم الذي يسكننا في غيابهم..

ما زلت حتى الآن وبعد مرور سبعة أعوام على رحيل أبي، أنتفض كلما ذُكرت سيرته، وكثيرًا ما تغلبني دموعي ولا أقوى على مداراتها، رغم أن الجميع قد يظن أنني اعتدت غيابه، لكنني أبدًا لم أفعل، ما زالت تأتي عليّ لحظات أنهار فيها من شدة الألم الذي يعتصر به قلبي اشتياقًا واحتياجًا إليه..

أعرف أصدقاء تُوفيت أمهاتهم منذ سنوات، وما زالوا يبكون كالأطفال كلما تذكروهم، ما زالوا يشعرون أنهم غيرُ مكتملين دونهم، ذلك الجزء الكبير الذي مات بهم حين ماتت أمهاتهم ترك فراغًا مخلوطًا بألم..

ذاك الشخص الذي مات صديقه منذ سنوات ولم تستطع تلك السنين أن تُنسيه، أو تهوّن عليه رحيله عنه..

تلك الدموع التي نذرفها وحدنا ولا يراها أحد تشهد أننا لم ننسَ، تشهد أننا لم نَعُد كما كنا قبلهم، وأن ما فقدناه لم يكن شخصًا، بل كان جزءًا منا، كأنه اقتص منا وما زال مكانه يؤلمنا..

قراءة

قيل أنها غذاء للعقل، لكنها في بعض الأحيان ربما تكون غذاء فاسد..

* * * *

حينما بدأت رحلتي مع القراءة، والتي بدأت مؤخرًا للغاية، فكنت حينها على مشارف العشرين من عمري، لكن أن تأتي متأخرًا خير من ألا تأتي، كنت أقرأ كل ما يأتي أمامي، لا أعرف كيف أختار الكتاب الذي سأقرأه، أو الكاتب الذي يجب أن أطلع على أعماله التي تفيدني..

كل ما كان يشغلني هي تلك المتعة التي أشعر بها حينما أقرأ، وذلك العالم الذي يرتسم بمخيلتي مع كل حكاية اقرأها، والشيء الأكثر أهمية هو أنني كنت أقتل ذاك الفراغ البغيض..

لكنني عندما تعمقتُ في عالم القراءة، بدأت أجد كثيرًا من الروايات متشابهة حد الملل، ووجدتُ نفسي أملّ حتى وأنا اقرأ، لم أكن أهتم بأسماء الكُتّاب في بادئ الأمر، فقط تلك الأعمال التي كانت تعجبني كثيرًا وتجذب انتباهي كنت أطلع على اسم الكاتب لأعرف من الذي استطاع أن يكتب هذا الكلام الذي حُفر بذاكرتي، واستحوذ على عقلي..

ثم وجدتُ نفسي أبحث عن الأعمال الأكثر إفادة، وبدأت أحفظ أسماء الكُتَّاب، وأبحث عن أعمالهم خاصة لأنني بداخلي أتيقن أن هذا القلم لا يكتب إلا ما يفيد..

على جانب آخر هناك بعض الروايات التي كانت تصيبني بالاشمئزاز، كيف لكاتب من المفترض أنه يُسخِّر قلمه وموهبته التي وهبها الله له في نفع الناس أن يكون هو ما يُفسد عقولهم وقلوبهم، ما كان لخيالي أن يصور لي أن هناك من يستطيعون كتابة مثل هذا الكلام ومثل هذه المشاهد التي يستحي الرجل أن يتفوه بمثلها بين أصدقائه لا أن تُكتب على صفحات كتاب يقرأه آلاف بل ربما ملايين الناس من مختلف الأعمار، والغريب في كل ذلك أن هؤلاء الكُتاب يحظون بشعبية عالية، والكثير يشيدون بموهبتهم وعبقريتهم الفذة، حتى وإن كانوا كذلك فإن هذا لا يُبيح لهم ما يدسون من سم في عسل موهبتهم، إن كانوا قبلوا أن يحملوا أمانة كأمانة الكتابة وأنهم مرآة العصر والثقافة، فإنهم أصبحوا ملزمين باحترام من يقرأون ما يكتبون لهم..

إن مثل هذه الأعمال وهؤلاء الكُتاب لا يغذون العقول، بل يُفسدونها عن جدارة..

فاحذروا وتخيروا ما تقرأون، ولا تغرنكم شهرتهم بأن تُفسد ما تسعون لإصلاحه..

صباح

لطالما كرهت الاستيقاظ مبكرًا، رغم أن أفضل الأشياء تكونُ في الصباح..

****

في طفولتنا كنا نستيقظ فجرًا أو بعده قليلًا، نخرج لنأتي "بالطعمية الساخنة" ونشتم رائحتها التي لم تفشل مرة واحدة في مداعبة أنوفنا ونحن نتلذذ بها، ثم نجتمع مع كل البيت ونجلس لنفطر سويًا، بعدها يذهب الأب إلى العمل وتبدأ الأم في ترتيب المنزل وتنضيفه بينما نخرج نحن للهو في الخارج..

كنا لنستمر على حب الصباح لولا أنه أصبح لزامًا علينا بعدما التحقنا بالمدرسة، وكل ما يُلزم علينا ويصبح فرضًا يُعد قيدًا، ولا أحد يحب القيود..

من هنا بدأ كرهنا للاستيقاظ مبكرًا حتى وإن استيقظنا نكون مُرغمين على ذلك..

الغريب في الأمر أن جميعنا نحلم بذلك اليوم الذي نستيقظ فيه مبكرًا ونقف في الشرفة نراقب الشروق ونحن نحتسي كوبًا من الشاي..

فلماذا نكره ما نحب؟!

لو أننا حولنا ذلك الإلزام إلى شيء نتمناه لأحبناه من كل قلوبنا، ولأصبحنا نتسابق على مَن يستيقظ أولًا..

تلك الفكرة بالتقيد هي التي فعلت بنا كل هذا، والأمر في حقيقته متروك لنا ولنظرتنا للأشياء، إن أردنا أن نراها جميلة فسنفعل، وإن أردنا عكس ذلك فسنفعل أيضًا..

ولتقرروا أنتم ماذا تحبون؟

زواج

أصبح الكثير من الناس يتزوجون فقط لأن هذا أمر لا بد أن يحدث..

* * * *

لم أنظر يومًا لخطوة الزواج على أنها فقط رداء زفاف أبيض وعُرسًا.. لذا لم أتعجل في الاختيار، فالزفاف سينتهي، وسيبقى من اخترته فقط..

عندما يصل الشاب إلى سنٍ معين فيبدأ بالبحث عن عروس، وبالطبع تعاونه أمه وكل عائلته في المهمة..

وعلى جانب ليس ببعيد، تلك الفتاة التي لم تلبث بوادر الأنوثة أن تظهر عليها، ويتقدم إليها شاب ما، فتبادر أمها بالحديث إليها أنها قد كَبُرت ولا بد لها أن تختار "ابن الحلال" الذي يتزوج بها ويسعدها و"يهننها" على حد قولها، فتتورد وجنتا الفتاة خجلًا، وترفرف الأحلام الوردية حولها وتتلاعب بعقلها الصغير الذي لم ينضج بعد..

وسريعًا ما تقوم برسم تلك الصورة في خيالها، برداء زفافها وعريسها يقف بجانبها يُمسك بيدها، ولا تعلم تلك المسكينة أن مسكة اليد تلك كمسكة العسكري للصوص..

ولستُ بهذا الحديث أسخر من الزواج، فأنا أعلمُ تمام العلم قيمة ميثاق كالزواج، وأنا أتحدث بالأساس لأنني أعلمُ أنه ليس بتلك السهولة التي يعتقدها البعض، ولا بأنه أمر لا قيمة له كما يتعامل معه الناس أحيانًا..

حينما تحدث الرسول -صلّى الله عليه وسلم- عن الزواج وصفه بكونه ميثاقًا غليظًا، والميثاق لا يكونُ إلا بين طرفين يفهم كل منهما الشروط التي يُقام عليها الميثاق، لا بين شخصين لا يعلمان شيئًا عن الزواج إلا أنه باب يُغلق على رجل وامرأة بعد حفلة تُقام، ويُزفان بحضور الجميع..

لا بد لمن يقدم على خطوة الزواج أن يكون عالمًا بواجباته قبل علمه بحقوقه، إن كان رجلًا أو امرأة..

لكن ما نراه اليوم لا يمتّ للميثاق بصلة، كلٌ يسعى للحصول على حقوقه، المرأة تريد أن يأتي زوجها لها بكل ما يخطر على بالها من ملذات الحياة، دون أن تراعي ظروفه الاجتماعية، فكل ما يهمها ألا تكون أقل من صاحباتها، وبنات خالاتها، وبنات عماتها..

والرجل يريد من زوجته أن تفعل كل شيء في البيت، ترتب وتنظف وتربي الأولاد وتدير شؤون المنزل، ولا تهمل نفسها وشكلها، حتى لا يُنظر إلى غيرها..

حتى وإن كان كل ذلك من حقوقهما، إلا أن البيوت تُقام على المودة والرحمة كما أخبرنا الله تعالى، والمودة تدفع كل طرف لأن يُخفف حمل صاحبه لا يزيده همًا بهم..

ثم تظهر المعضلة الكبرى حين يُنجبان، وهما لا يعرفان شيئًا عن أسس التربية السليمة، ولم يتعلما إنشاء ولد صالح وسويّ، كل ما يعرفانه أنهما يوفران له أكلًا وملبسًا، ونسيا أن آخر شيء في التربية هي المأكل والملبس، فالجميع يأكلون ويلبسون، لكن القليل الذي يخرج للحياة وقد تربى جيدًا، وهذا يتوقف على حسب الآباء..

فكيف لمن لم يصلا لسن النضج بعد أن يقدرا على تربية أولادهم؟!

إن المشكلة ليست في الزواج فقط، إنما في كل ما يترتب عليها إن لم يكن الطرفان مدركين لما يفعلان..

نسب الطلاق التي ترتفع يومًا بعد الآخر، سببها الرئيسي هي الإقدام على الزواج دون فهم معنى الزواج على حقيقته..

فلتتعلموا أولًا معنى الكلمة قبل أن تُقدموا عليها..

زوجي

الجميع حولي يريدون مني أن أختار زوجًا يتناسب مع أفكارهم، رغم أنني أنا التي ستتزوجه لا هم، فلماذا لا يتركون لي الخيار؟!

****

على مدار السنين الماضية كان عليّ أن أختار زوجًا ممن يتقدمون إليّ بعروض زواج، ورغم كثرتهم إلا أنني لم أجد بينهم ما يناسب شخصيتي وأفكاري، فهل تُعد هذه جريمة؟!

ليس معنى أنه يتقدم لي كثيرون أنه لزامًا عليّ أن أختار من بينهم، فكان يكفيني أن يتقدم لي واحد فقط أرى فيه من الصفات ما أتمنى ولم أكن حينها لأرفض أبدًا، ففي النهاية لن أدخل مسابقة بعدد من يتقدمون لي وأرفضهم..

إنني أختار رجلًا سأشاركه الباقي من عمري، لا زميل عمل إن لم نتفق أقدم له استقالتي وأبحث عن عمل آخر بتلك السهولة، فإن لم يكن من سأختاره مناسبًا لي، ولرغباتي التي أتمناها -حتى وإن كانت رغباتي تلك تختلف عن رغبات جميع من حولي- فلن ينجح زواجنا بالتأكيد..

شرط الزواج من الأساس هو القبول، والقبول يعني أنني أتقبله بكل خصاله، وأرتضيه لنفسي، وأوافق عليه بكل ما فيه، وبالطبع أنا لا أريده ملاكًا ينزل لي من السماء خاليًا من العيوب، كامل الأوصاف -كما يعتقد الكثير- فلستُ أنا بملاكٍ، وأعلمُ تمام العلم أننا بشر لا أحد منا كامل، أنا فقط أبحث عمن أشعر تجاهه بالألفة والقبول، ومن يناسب شخصيتي، من يتفهمني ويتقبلني بكل فوضويتي..

جميع من أرفض الزواج منهم يكون خوفًا لا كرهًا، خوفًا من ألا يتحمل شخصيتي، فرغم كل ما أراه بي من صفات حسنة، إلا أنه هناك جانب مظلم بداخلي، أخشى ألا يتقبله أحد، أخشى من التعري أمام شخص ما أضع به كامل ثقتي فيرى ضعفي المتواري خلف قناع قوتي هذا، فيستغله، ولن أتحمل حينها أبدًا، وربما ينكسرُ قلبي ولا يُجبر بعدها أبدًا..

ولأختار شخصًا أسمح له بالاقتراب مني إلى هذه الدرجة، لا بُد أن أرى فيه ما يؤهله لذلك، ما يجعل "لا" تتحول إلى "نعم"

ثم إنني لا أختار زوجًا فحسب، إنني أختار أبًا لأولادي فيما بعد، فبجانب التفكير في نفسي، أفكر في أولادي، وإنه لزامًا عليّ أن أختار لهم أبًا مناسبًا، يكونُ لهم قدوة، ويعينني على تربيتهم تربية سليمة، لنخرجهم للمجتمع أبناء صالحين، ويشاركني في تعليمهم تعاليم ديننا

وغرسها في نفوسهم، لا شخص يتركني وحدي ويذهب لعمله ثم يعود ليجلس وحده ليريح رأسه بعيدًا عنا، وكأن كل مهمته في حياتنا أن يأتي لنا بالمال فقط..

فكيف لي أن أقرر قرارًا مصيريًّا كهذا، وأختار أحدهم فقط لأن من حولي يرون أنه مناسب؟

من أين أتيتم بذلك التناسب؟!

هل دخلتم إلى قلبي وعقلي، ورأيتم ما بهما لتصدروا ذلك الحكم الأحمق بالمناسبة، ألأنه يعمل في وظيفة ذات شأن اجتماعيّ جعلتموه مناسبًا، أم لأن لديه من المال ما يجعله يأتيني بما أريد؟!

إنني لن أحيا مع وظيفته، ولا مع ماله -وإن كانت تلك الصفات مهمة لكنها ليست الأساس الذي يقوم عليه بيت-..

أريد أن يأتي كسند، أميل برأسي على كتفه إن أتعبتني الحياة فلا يميل هو، أشاركه أفكاري التافهة أحيانًا فيتفهمها ويناقشني فيها، لا يتذمر من تصرفاتي الطفولية بل يحتويها كأنني طفلته المدللة، يأتي كشعاع ضوء ينير ما بقلبي من ظلام، أريد من أشعر في حضرته بالأمان يحيطني، لا يمثل هو خطرًا آخر عليّ..

والوحيدة التي يحق لها أن تقرر وتختار ذلك الشخص هي أنا فقط، ولا أحد سواي..

رسائل لن تصل

كم من الكلمات بداخلنا نودُّ لو أن نخرجها، وكم من الأحاديث التي نود لو أن نخبرها لشخص ما لكننا لا نقوى على ذلك، وكم من الرسائل التي تسكننا نود لو أن نستطيع أن نرسلها لكننا لن نفعل!

****

" إلى كل الذين يروننني شخصًا سيئًا، المحقون في رأيهم -غالبًا-:

وددت لو أنكم سمعتم ما بداخلي من حديث لا أعرف كيف أنطقه، أكتبُ رسالتي التي أعلم أن أحدًا لن يقرأها، ومع ذلك أكتب..

لستُ بذلك السوء الذي تعتقدون، بداخلي بذرة خير ككل البشر، لو أنكم استطعتم رؤيتها ورعايتها لأنبتت من الورود حدائق وبساتين، لكنكم اجتثيتموها من جذعها، أصدرتم حكمكم بالإعدام ولن تفكروا للحظة أنني قد أتغير، فقط لو أنكم أعطيتموني فرصة واحدة..

لم تنظروا لأعماقي جيدًا.. ربما أحمل من السوء الكثير، لكنني أبدًا لم أُحب نفسي هكذا، فلطالما تمنيت أن أتغير، أن يمد لي أحد يده لينتشلني من ضياعي ويرشدني لطريق الصواب، كنتُ أضعف من أن

أخطو وأسير في ذلك الطريق وحدي، متخبطًا حائرًا أحتاج لمن يرشدني ويسندني، لكنني لم أجد، لم أجد يدًا واحدة امتدَّت لي لتساعدني، كل الأيادي كانت تمتد فقط لتعاقبني..

أخبركم أن الأوان لم يفت بعد، فلا زلت أنتظر، أنتظر اليد التي ستمتد لي لتساعدني لا لتعاقبني، وأقسم أنني سأسير معها وسأتغير لأكون أفضل."

****

إلى ذلك الشخص الذي كان يومًا ما أحبَّ إليَّ من الكثير:

"لطالما اعتقدت أنني كرهتك من كثرة أفعالك السيئة التي زادت كثيرًا عن حدّها، اعتقدت أن كل ما فعلته بي كان كافيًا ليمحي كل ذرة حب كانت لك بقلبي يومًا، كلما صدر منك تصرفًا سيئًا بحقي كنت ألعنك وألعن قلبي الذي أحب أحدًا مثلك، كرهتك بقدر ما أحببتك، أو أنني كنت أعتقد أنني كرهتك، لأن قلبي لم يفعل؛ لأنه لا يعرف كيف يكره من كان الأحب إليه.. تلك الأمنية التي تتخفى داخل أعماقي في عودتك، تبرهن لي أنني لم أكرهك، لم أستطع أن أنسى كل جميل قدمته لي ذات يوم، رغم أن الأذى الذي سببته لقلبي أكثر بكثير، لكن قلبي الأحمق ما زال يحنُّ إليك، ما زال يأمل أن تتغير وتعود كما كنت سابقًا، وما زال بحماقته وبرغم كل ما فعلته يصدق أنك لا زلت تحبه كما أحبك."

إلى الذين أحببتهم بقدر لم يستطيعوا استيعابه:

" لم أحزن يومًا لأنكم لم تبادلونني قدر الحب الذي كان بقلبي لكم، إن ما أحزنني بحق أنكم لم تصدقوا ذلك الحب، ظننتم أنني أتصنع محبتكم، ولم تستوعب قلوبكم الفارغة محبة قلب طفلة تعدت العشرين من عمرها..

أشكركم من كل قلبي.. فلقد علمني ذلك الكثير، تعلمت ألا أقدم محبتي إلا لمن يستحقها، ويبادلني بمثلها، من يرى نقاء قلبي وصدق محبتي ويقدرهما، ولقد وجدتُ الكثير.."

* * * *

إلى الطفلة صاحبة الثماني أعوام التي كنتها يومًا:

"سلام الله لكِ يا صغيرتي، ثم سلامٌ لقلبك وروحك البريئين..

ثم أما بعد:

اشتقتُ لكِ كثيرًا يا صغيرتي، اشتقتُ لتلك الأيام التي كنتُ أعيشها، لضحكة أبي، وصحبة أخوتي في ليلة هادئة لا يشوبها حزن ولا تعكرها دموع ألم، اشتقتُ للَّهو طوال النهار، ثم الاستلقاء على الفراش والغوص في نوم عميق، دون أن يُقلق نومي خوفًا..

اشتقتُ لضحكتكِ الصافية، وعفويتكِ الصاخبة التي تأسر قلوب كل من يتعاملون معكِ، واشتقتُ لشغبكِ الرقيق الذي أحبه الجميع..

اشتقتُ لحضن أبي الذي حُرمتُ منه مبكرًا، وللحلوى التي كان يأتيني بها كل يوم خصيصًا لأجلي، للمسة يده على خدي يمسح بها دموعي ولتلك القبلة التي تتبعها لتطيب مكان الدموع فيتلاشى الحزن كأنه لم يكن، ويحل مكانه ابتسامة ترتسم على قلبي وتُطبع على روحي قبل وجهي..

اشتقتُ لسهرة تجمع العائلة بأكملها أمام مباراة كرة قدم، خاصة مبارايات مصر في كأس الأمم الأفريقية، وهدف "أبو تريكة" وصرخاتنا الفرحة به، للحماس الذي يملأنا مع كل هجمة لنا، وضربات قلوبنا التي تتصارع خوفًا إن جاءت هجمة علينا، وتنفس الصعداء بعدها حين تخيب..

لاحتفالاتنا بعد التتويج، وصوت الطبول تُقرع في كل شوارع البلدة يهتفون باسم مصر، والسعادة التي تملأ قلوبنا حينها ونحن نردد معهم هتافاتهم..

اشتقتُ لليلة العيد، وتحضير الملابس، والمفرقعات اللازمة، والذهاب إلى "المكوجي" ب "جلابية" أبي لكيها، واحتضاني لها بفرحة تطغى على كل خلاياي، والاستيقاظ مبكرًا يوم العيد، وإيقاظ أبي لأخذ

العيدية منه أولًا، والقبلة على يده، والبسمة على شفتيه وحدهما عيدًا بحدِّ ذاتهما..

للخروج إلى الشارع بلباس العيد الجديد وفرحتي به، ثم زيارة الأقارب لنا وزيارتنا لهم ليلًا حين يصطحبنا أبي جميعًا لنذهب لهم، والتعلق بذراعه ونحن نسير سابقين أمي وأخوتي..

اشتقتُ للذهاب للمدرسة كل صباح، للطابور الصباحي، والحصص التي كنتُ لغبائي أتمنى أن تنتهي سريعًا، ولو علمتُ ما سيحدث بعدها لتمنيت أن تطول أكثر من ذلك بكثير..

لفرحتي بجرس الفسحة لألتهم ما بحوزتي من شطائر، ولجرس انتهاء اليوم لأنني أخيرًا سأعود للمنزل..

اشتقتُ لكل شيء..

أيا صغيرتي، الحياة بعد الطفولة مُخيفة، مخيفة جدًا، عزائي الوحيد الذي يهون عليَّ ما ألاقيه أنني عِشتُ طفولتي، وتمتعت بكل لحظة فيها..

لا أعلم حقيقة إن كان هذا يُسعدني حقًا أم أنه يُحزنني..

لكنني على أي حالٍ صرتُ هنا، وهجرتكِ وهجرتُ أيامي معكِ، فهذه يا صغيرتي سُنة الحياة، وطريقها الذي نسيرُ فيه، طريقٌ بوجهة واحدة، ذهاب بلا عودة..

أتعلمين؟! إنني فقط أتمنى أن أحيا شبابي وأعيشه كما عايشت طفولتي، أعيش كل يوم فيه وأستمتع به ولا آبه بشيء في الحياة، لكن حتى ذلك الخيار غير متوفر في مرحلة ما بعد الطفولة..

هنا، عليكِ أن تفكري في كل شيء، الماضي والحاضر والمستقبل.. فيضيع الحاضر بين الحزن على الماضي، والخوف من المستقبل..

على كلٍ، لننتهي عند هذا الحد فلقد أطلت الحديث، لكن كل هذا الحديث لا يكفي معكِ، ومن غيركِ سأخبرها بمكنون صدري الذي لا أتحدث به إلى أحد..

لن أقول ليتني أعود إليكِ وإن كانت تلك أمنيتي بالفعل، لكنني أعلم أن هذا لن يحدث، فقط أتمنى ألا تغادريني أنتِ، فأنتِ ما زلتِ قابعة بقلبي، أشعرُ بكِ في أعماقي.. تراودني الدنيا عنكِ لتسلبني إياكِ، وأجاهد أنا بكل قوتي لأحافظ عليكِ بداخلي كما أنتِ، فأنتِ كنزي الثمين الذي لا أستطيع التخلي عنه.."

* * * *

إلى الشخص الذي من المفترض أنه أبي:

"لم تفعل شيئًا واحدًا يجعلك تستحق عليه ذلك اللقب، لم أرَ منك ما يفعله الآباء لأبنائهم، بل لم أركَ أنت من الأساس..

لا أعلم لماذا تزوجت بأمي وأنجبتني إن كنتَ ستتركنا؟! أنت لم تهجر زوجة فقط، لقد تركتَ معها طفلة جعلتها يتيمة رغم أن أباها ما زال على قيد الحياة، على قيد كل حياة إلا حياة ابنته، ولو أنكَ كنتَ ميتًا لكان أفضل، لم أكن حينها لأشعر بما أشعر به الآن..

تلك الندبة الي تسببت لي بها، والتي تُعلم بقلبي، أخشى أن يراها أحد، بينما هي ظاهرة للجميع، كأنني عارية تمامًا، دون سند يحميني، أو حِصن يأويني..

لقد خَلّف غيابك ألمًا بروحي لم أجد له يومًا مُسكنًا، وأصبح الخوف يسكنُ خلاياي، كأنه جزء مني لا يفترق عني..

أخافُ من ذلك اليوم الذي سيتقدمُ لي فيه أحدهم، كيف أستطيع أن أستأمنه على نفسي أنه سيتقبلني إن كان الذي أنا قطعة منه لم يفعل؟!

كيف سأصدق أنه لن يتركني ويرحل مثلما فعلتَ أنتَ بي وبأمي؟!

انتظرتك كثيرًا لتأتي وتخبرني بذلك السبب الذي جعلك تفعل بي ما فعلت، لكنك لم تأتِ، حاولتُ أن أعثر لكَ على عذر لكنني لم أستطع..

سأحيا عمري كله ناقمة عليك، ولتعذرني أنت على شعوري هذا، فذلك حصاد ما زرعته أنت بأفعالك معي، وحصيلة ما تركت وراءك ولم تلتفت ولو مرة واحدة لتطمئن فيها عمن تُسمى ابنتك."

* * * *

إليكَ يا أقرب من على الأرض إلى نفسي، وأحبهم إلى قلبي:

"احتار قلبي في إيجاد صفة لك، تُخبرني أنت أننا مجرد أصدقاء، ويُقسم قلبي أنك أكثر من ذلك بكثير..

أرى الحب يلتمع في نظرات عينيك كلما نظرتُ إليهما، وأشعر بك وأنت تجاهد لتداري ما بهما، فلماذا، لماذا تخبئ عني ما أنا أشتاق لإفصاحك به؟! أتخشى مني أن أكون لا أبادلك نفس شعورك، أم أنك تخشى القدر أن لا يكونُ قد كُتب لنا أن نكون لبعضنا؟!

إن كانت الأولى، فها أنا ذا، أخبرك أنني مغرمة بك حد الغرق، فقط أخبرني بمكنون قلبك لأفيض أنا بما في قلبي لك.. وإن كانت الثانية، فلنتركها لله ولن يُضيعنا، لن نهون عليه أن يفرق قلبانا ولا أن يكتب علينا الفراق والوجع، لن يفعل بي ولا بك، أنا أثق بهذا، لأنني وفي كل ليلة أدعوه أن يجعل لي معك نصيبًا، وأن يجمع قلبينا جمعًا لا فراق بعده.."

إلى الفتاة التي هجرتني سابقًا لأنني لا أليقُ بها:

"كنتُ فقيرًا للمالِ فأغناني الله من فضله؛ لأنني كنتُ صادقًا، وكنتِ غنية مال لكنكِ كنتِ ولا زلتِ فقيرة قناعة، فهذه لا يمكن الاغتناء بها يومًا..

حزنتُ كثيرًا يوم تركتِني، وجاهدتُ كي أتخلص من ذاك الفقر ظنًا مني أنه عيب، ولما وصلتُ إلى ما تمنيتُ، علمتُ أن الغنى غنى النفس كما يقولون، وأن الإنسان بمبادئه لا بماله..

ورغم أنني فعلتُ كل ذلك لأنتقم لنفسي منكِ، إلا أنني الآن لا أشعر تجاهكِ بشيء يذكر، لا حب ولا كره، ولا رغبة في انتقام..

أصبحتِ لا شيء لي، لكن ما فعلتِه معي ورفضكِ لي كان شيئًا يستحق أن أشكركِ عليه؛ لأنكِ لو لم تفعلي ما فعلتيه لم أكن لأصل إلى ما أنا عليه الآن..

قالوا لنا قديمًا إن بعض الناس يأتون حياتنا كدروس نتعلم منها، وقد كنتِ أنتِ أكبر وأهم درس تعلمته.. فكل الشكر لكِ."

****

إلى الشخص الذي أخبرني أن أجمل ما في شكلي "أنفي":

"لم تكن تعلم أنني لا أحب أن أضحك بشدة عند التقاط الصور؛ لكي لا تظهر أنفي إنها كبيرة الحجم كما أخبرني أحدهم يومًا..

منذ أخبرتني بكلماتك تلك وكلما نظرت إلى وجهي في المرآة شعرتُ أن أنفي بالفعل أصبح صغيرًا، ولا أعلم كيف! يبدو أنه بسبب سحر كلماتك عليّ، كلما نظرتُ إليها أبتسم، بعدما كنتُ لا أحب النظر إليها من الأساس..

أنا اليوم أُدينُ لك بتلك الابتسامات النابعة من قلبي، وبتلك الثقة التي منحتها لي بكلماتك الرقيقة تلك.."

****

إلى الشخص الذي رحلَ عني ولم تكتمل حكايتنا بعد:

"أشتاقُ لكَ كثيرًا، وأنتظر لحظة عودتكَ قريبًا لنتقابل مرة أخرى، وحينها سأخبرك بكل ما في قلبي لكَ، سأخبرك أنك أفضل ما رزقني القدر، وأنك الوحيد الذي أحببتُ نفسي معه..

جعلتني أرى نفسي بعينيك الجميلتين، فرأيتني ذات قدر عظيم، فآمنتُ بنفسي ومضيتُ في طريقي حتى وصلتُ إلى ما تمنيتُ، فقط بقيَ شيء واحد، أن ألتقيكَ مجددًا، ونتحدثُ كثيرًا بينما نتشارك فنجاني قهوة وأحتسيها باردة مرة أخرى كما فعلتُ سابقًا؛ لأن الحديث معك أنساني إياها.. أتعلمُ أنني كلما احتسيتُ قهوة أتركها تبرد ثم أحتسيها؟! وكأنها أصبحت عادة عندي لتذكرني بك، رغم أنني لا أنساك..

ولتعلم أنني لا زلتُ أنتظرك، فهلا أتيت؟!"

****

إلى كل اللذين رحلوا عنا، وتركونا في منتصف الطريق. إلى من أخذهم منا القدر ولم تكن قلوبنا قد اكتفت منهم بعد:

"نشتاق إليكم في كل لحظة تمر علينا، نفتقدكم في كل ما نحياه..

نراكم بجوارنا، وتشتاق أرواحنا لعناق منكم، وحديث طويل لا ينتهي إلا بانتهاء الليل، وسلام حار بعد غياب، نروي به ظمأنا إليكم..

اشتقنا إلى نصائحكم وإرشاداتكم التي كنا نتذمر منها أحيانًا، علمنا الآن أنها كانت لا تقدر بثمن..

علمنا كم كنا أغبياء لأننا لم ندرك قيمتكم إلا بعد رحيلكم عنا..

لم ننسكم، ولن نفعل أبدًا.."

غُربة

ليست تلك التي يختارها المرء حبًا، إنما هي أكبر ما يكره المرء على فعله..

****

في الصغر، كنت أحسد من يسافرون خارج البلاد ظنًا مني أنهم سعيدون برؤية بلاد أخرى، حتى كبرت وعلمتُ مدى حزنهم الذي يسكن قلوبهم عند مفارقة البلاد، لم أرَ شخصًا واحدًا أحب أن يترك بلاده وأهله ويرحل إلى بلد أخرى، كل من يفعلون، يفعلون قسرًا لا حبًا..

إنه لأمر قاسٍ أن يعيش المرء وحيدًا، لا أحد يشاركه لحظات يومه، لا يرى من يحب حين يشتاق إليهم، ولا يستطيع أن يكون بجانبهم إن احتاج لهم أو احتاجوا له..

عندما يمرض يبقى وحيدًا، لا يجد من يكون جانبه ليخفف عنه، وعندما يمر بضغط ما لا يجد من يجلس معه ليبوح له بمكنون صدره ليرتاح قليلًا، فلا بُد أن يرسم تلك الابتسامة وأن يتقنع بقناع الرضى، والسعادة دائمًا حتى لا يقلق أهله..

يخبي كل ما يراه من سوء، ويمتلئ قلبه بآلام لا يعرفها ولا يشعر بها أحد إلا هو ومن مثله..

إن الغربة ليست تلك التي يجني فيها المرء الكثير من المال ثم يأتي محملًا بالهدايا، إنه يدفع عن كل ذلك ما لا يستطيع شرائه بمال العالم أجمع..

أولاده الذين يكبرون بعيدًا عن عينيه، وربما يُولد له أطفالًا لا يراهم لسنين إلا صورًا، حتى إذا عاد إليهم لا يعرفونه، ثم إذا ما لبثوا أن يتعرفوا إليه ويعتادون عليه تركهم ورحل ثانية، هل شعر أحدكم بذلك الشعور الذي يشعر به هو حينها؟!

جربتُ شعور الغُربة مرة واحدة، حتى أنها لم تكن غُربة بالمعنى الحقيقي، حينما أخذت سكنًا جامعيًّا، وكل ما كان يفصلني عن بيتي ساعة واحدة، وكل ما أقضيه بعيدا عن أهلي فقط ثلاثة أيام، كنتُ أقضيهم بكاء، أريد العودة إلى بيتي وأهلي، إلى شارعي وجيراني، إلى كل ما أنتمي إليه أو ينتمي إليّ..

حينها علمت ما يعيشه المغتربون، وما يعانون في غُربتهم، والثمن الذي يدفعونه أمام تلك الأوراق التي لا قيمة لها إن قورنت بالثمن الذي يدفعونه..

الجميع يحسد المغتربين على أموالهم، والمغتربون يودون لو أنهم يتنازلوا عن كل ذلك المال ويقون في بيوتهم إلى جانب أهلهم ولا يتركونهم أبدًا..

قُدوة

في صغري كنت أتخذ أشخاصًا كثيرة قدوة لي، كنتُ أراهم على أنهم لا يخطئون مثلنا، أنظر إليهم بانبهار وكأنهم ملائكة منزَّلون من السماء. مرت السنون وكَبِرت واقتربت من هؤلاء الأشخاص أكثر وجمع بيننا تعاملات كثيرة، لأُفاجأ بالذنوب التي يرتكبونها، والأخطاء التي يمارسونها.. كانت الصدمة كبيرة، لدرجة أنني شعرت بالاشمئزاز منهم..

لتمر الأيام وأتعرض لمواقف مشابهة، هناك من يرونني على أنني إنسان كامل لا يخطيء، رغم أنني مليئة بالذنوب التي لا يعلمها إلا الله، ولو علمها أحد لما نظر في وجهي من الأساس..

ما ذنبي أنا في تلك الصورة الملائكية التي رسموها لي؟ لم أطلب من أحد أن يفكر فيَّ على أنني شخص مثالي هكذا، أريدهم أن يعاملونني على أنني مجرد بشر، أخطئ وأصيب، أضعف وأقع في الذنوب كأي شخص وجد على الأرض..

هكذا وجدت نفسي أتذكر هؤلاء الأشخاص مرة أخرى، لم يكن ذنبهم أنني رسمت لهم تلك الصورة المثالية وقمت بتزيينها بأفضل إطار في خيالي، أنا من صنع لهم تلك الشخصية التي لا تخطئ، ونسيت بأنهم في النهاية بشر، وأنهم من حقهم أن يُخطئوا، المهم في القدوة أنه عندما يخطئ يعترف بخطئه، ويحاول إصلاحه وليس تبريره..

لذلك لا تصنعوا صورًا ملائكية لأحد حتى إذا ما تبين لكم أنهم بشر كرهتموهم..

تمَّ بحمد الله

الفهرس

معانِ مَخْفيّة	٧
قهوة ويانسون	٩
الحب الأول	١٣
أب	١٥
أمي	١٩
يُتْم	٢٣
رسائل إلى أبي	٢٩
صداقة	٣٧
قصة فشل	٤١
وحدة	٤٥
موت	٤٩
قراءة	٥٣
صباح	٥٥
زواج	٥٧
زوجي	٦١
رسائل لن تصل	٦٥
غُربة	٧٧
قُدوة	٧٩